بين المتنبي وكافور

دراسة بائية المتنبي في مدح كافور

للأديب نور الدين شمسي

ليس يعنينا في دراستنا لقصيدة المتنبي أن نقف على كل شاردة وواردة فيها، نشرحها ونعللها ونبين ما تنطوي عليه من معنى وما تحتويه من ألوان القبح أو الجمال، لأن هذا يخرج بنا عن نطاق الدراسة العاجلة التي نريد بها اليوم أن نقف على قصيدة المتنبي جملة فنقرر ما إذا كنا نستطيع أن نرفع من شأنها لنضعها في عداد فرائده وروائع قصائده.. أو أن نضع من شأنها فنلحق بها بين قصائده التي ابتعد فيها عن عبقريته وانحط من عليائه.. أو أن نلتمس لها مكانة بين المكانتين لا نرفعها ولا نضعها.. وإنما ننظر إليها على أنها قصيدة استوى فيها عمود الشعر وأخذت من جماله بنصيب

الحق أن المتنبي ليس كغيره من الشعراء، وإذا أردنا أن ندرس قصيدته فما ينبغي لنا أن ندرسها كما ندرس أية قصيدة أخرى لأي شاعر آخر.. وإنما يجب أن نراعي خلال ذلك اعتبارات لن نستطيع مطلقا أن نفهم القصيدة ما لم نقف عندها مليا ونتأملها طويلا

فالمتنبي شاعر طموح كبير النفس، لازمه طموحه منذ أن كان صبيا حتى وافاه أجله وانتهى إلى نهايته.. وطموحه هذا هو الذي جعله في كثير من الأحيان يخرج عن المألوف فيفخر بنفسه فخرا لا يدانيه فخر، ويعجب بقوته عجبا لا يماثله عجب، وينظر إلى نفسه على أنها من نفوس الملوك والأمراء وإن وضعتها المقادير نمطا وإجحافا في مصاف الشعراء الذين لا حول لهم ولا قوة:

همتي همة الملوك وإن كا ... ن لساني يرى من الشعراء

إذا فهمنا هذه الناحية من حياة أبي الطيب فقد وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام أعذار جمة نستطيع معها أن نقبل من المتنبي إسرافه في مدح كافور في بائيته

ذلك أن نفس أبي الطيب كانت تتململ بين جنبيه وتأبى أن تظل هكذا بعيدة عن العظمة التي خلقت لها بينما يتمتع بها أناس ليسوا بأحسن منه حالا ولا بأطول باعا ولا بأرسخ في العلم قدما. ولذا نراه يطلبها جادا وبأي ثمن فيمدح العبد ويقدم بين يديه الشعر الرفيع والقصيدة الخالدة؛ وكأني بنفسه تكبر ذلك وتأباه، وكأني به يفكر ويكذب ما يقول ولكنه يرضاه مرغما ليشبع في نفسه نهما إلى الملك والعظمة وكبار الأمور. ولو لم تكن بين جنبي أبي الطيب تلك النفس الكبيرة لرضي بصغائر الأمور وحقائرها ولقنع بما قنع به غيره من عطاء الملوك ونوال الأمراء

لم تكن قصيدة المتنبي في مدح كافور ضربا من المدح المعتدل، وإنما كان فيها إغراق في التعظيم وإسراف في الثناء.. وما للمتنبي من غرض يبتغيه إلا أن تبلغ القصيدة قلب الممدوح وتصل إلى وجدانه.. وما كان له من غاية، بعد ذلك، إلا أن يستجيب له ذلك القلب وهذا الوجدان فيبلغه القصد ويدنيه من الأمل

ولذلك نستطيع أن نسيغ تلك المبالغة التي نثرها في قصيدته بغير حساب.. ثم لا نكتفي بذلك بل لا نملك أنفسنا من أن نردد بكثير من الطرب والإعجاب قوله:

كتائب ما انفكت تجوس عمائرا ... من الأرض قد جاست إليها فيافيا
غزوت بها دور الملوك فباشرت ... سنابكها هاماتهم... والمغانيا
وأنت الذي تغشى الأسنة أولا ... وتأنف أن تغشى الأسنة ثانيا

إنها مبالغة لا شك.. ولكنها على جانب كبير من الروعة والجمال، ومن ذا الذي يمنع الشاعر أن يملأ ماضيه بمثل ذلك.. وما ميدانه إلا الشعر.. وما قوامه إلا الخيال الواسع البعيد؟

لننتقل الآن إلى العاطفة، ولنفتش عنها بين أبيات هذه القصيدة فهل نرى لها أثرا.. وما حظها من القوة وتمكنها من الصدق؟

لا نستطيع أن نحكم بأن المتنبي كان صادقا في مدحه لكافور لأنه إنما كان يمدحه حبا في الوصول إلى غرض معين.. ولكن كيف استطاع المتنبي أن يكسب قصيدته هذا اللون من القوة والتأثير، وكيف استطاع أن يرضي كافورا — وإن لم يصل به رضاه إلى حد الاقتناع فالاستجابة — ؟

الواقع أن المتنبي لم يكن يضمر لكافور شيئاً من الحب كما أنه لم يكن يضمر له شيئاً من البغض .. وكل ما هنالك أنه كان يطمع في أن يصل إلى شيء عن يديه وبواسطته .. إذاً فما له لا يستعمل براعته في أن يجعل من قصيدته هذه قصيدة صالحة لأن تقدم إلى ملك بغية التأثير عليه وأملا في تحريك قلبه ووجدانه، وما هي حقيقة آلته إلى ذلك؟

يقول أميل فاكيه في عبقرية شاتوبريان « إن العاطفة والجمال هما قوام الشاعر . . ولكن يكفي أحد هذين العنصرين إذا كان ممتازا أو قويا ، وإن كان اجتماعهما عند شاعر ينتج أروع الآثار »

إذاً فلم لا يلجأ المتنبي إلى خياله الخصب ما دام أحس برودة عاطفته وجمود إحساسه وله في الخيال كعب عال وسبق وتبرز ؟ وما لنا ألا نفتش عن سبب جمال القصيدة في ميدان الخيال بعد أن بحثنا عبثا في ميدان العاطفة ؟

ألا ترى إلى هاتيك الجرد الخفاف كيف صورهن خياله على أبرع شكل وبأروع صورة . . وكيف وضع أمام ناظريك صورة ذلك القطيع من الجياد : يدب آناء الليل وأطراف النهار ليبلغ كافوراً ولو بعد السير إليه :

وجرداً مددنا بين آذانها القنا فبتن خفافا يقبعن العواليا
وتنظر من سود صوادق في الدجى يرين بعيدات الشخوص كما هيا
وتنصب للجرس الخفي أسوامعا يخلن مناجاة الضمير تنادياً
بعزم يسير الجسم في السرج راكبا به ويسير القلب في الجسم ماشيا
قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

أولا ترى أن الخيال وحده هو الذي ملأك دهشة وإعجابا

وانظر إلى هذا البيت الذي اعتمد على العاطفة وحدها ألا تحس بيرودته وتشعر بجموده :

أبا المسك هذا الوجه الذي كنت تائقا إليه وهذا الوجه الذي كنت راجيا

إن الخيال مرة ، والمبالغة العادلة مرة ثانية ، وهذه الوسيلة العذبة التي تراها شائعة في كل أنحاء القصيدة ، وهذا البحر الطويل الملائم الذي اختاره لقصيدته . . وذلك الأسلوب الرصين والديباجة الشرقة التي لا تستطيع أن تدل عليها ببنانك وإنما تشعر بها بجنانك . . هذا كله وشيء من الصناعة الطريفة التي جاءت من غير كد ولا تكلف ، ساهم في إعطاء القصيدة درجة ممتازة ومكانة رفيعة بين سائر شعره وقصيده

* * *

على أنه لا ينبغي لنا أن ننظر إلى القصيدة بعين واحدة فحسب هي عين الرضا والارتياح وإنما يجب أن ننظر إليها بالعين الأخرى لنرى ما إذا كان هنالك بعض ما يؤخذ عليها من عيوب :

لئن كنا أعجبنا كثيرا ببعض ضروب المبالغة التي جاءت في قصيدة المتنبي اليائية، إلا أن ذلك لا يمنعنا أن ننكر بعضها الآخر ونستقبحه ونستذربه . ولئن سوغنا له أن يتحدث عن شجاعة كافور وبسالته بالمقدار الذي أراد، إلا أننا لا نسوغ له مطلقا أن يجعل الجنس السامي كله وما يملك من نفس ومال فداء له مبالغة في الثناء وإسرافا في الامتداح :

ومن قول سام لو رآك لنفسه فدى ابن أخي نفسي ومالي

كما أننا ننكر أن يقول المتنبي مثل هذا القول :

تقي ما سرينا في ظهور جدودنا إلى عصره إلا ترجى التلاقيا

لأننا ما عهدنا المتنبي يقول ذلك وهو الذي قال صغيرا :

أي مكان أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرق

وهو الذي قال كبيرا :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأني خير من تسعى به قدم

كما قال :

وكيف لا يحسد امرؤ علم له فوق كل هامة قدم

ومما يجعلنا نشتط في إنكارنا هذه المبالغة في هذه الأبيات التي مرت بنا ، أنه ينشدها في أول زيارة لكافور حين كان هذا يعلم تمام العلم أن المتنبي لم يحبه بعد ولم يعرف عن سجاياه ما يجعله في عينه يستحق مثل هذا الإطراء ، الأمر الذي أدخل الشك إلى نفس كافور وعرفه بأن هذه المبالغة إنما هي مبالغة في التملق والرياء لا في المدح والثناء

ولو اقتصر المتنبي على الإغراق في المدح لهان الأمر . . ولكننا نراه منذ أول قصيدة أنشدها في كافور يلوح له بما في نفسه ويطلب منه الإمارة والولاية فيدرك كافور الغرض من

مجيئه ويعرف سر هذه المغالاة فى مدحه وتعظيمه

ولو اقتصر الأمر أيضاً على الإغراق فى المدح والمطالبة بالولاية لالتمسنا له بعض العذر — مكابرين — ولكنه أرادها جائزة تليق بعظمته ، بدون ستر أو إخفاء :

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا
فقد شهب الجيش الذى جاء غازيا لسائلك الفرد الذى جاء عافيا
وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

مما جعل كافور يخاف من نوايا المتنبي ويقول كلمته المعروفة « ياقوم إن من ادعى النبوة بعد محمد (ص) ألا يدعى الملك بعد كافور ؟ فحسبكم »

وشئ آخر لا نريد أن نمر بالقصيدة دون أن نقف عنده بعض الشئ ، وهو خلوها من فخره بنفسه على غير عادته فى مدحه للآخرين .. وإن كان المدح الأمثل يتطلب ذوبان شخصية المادح فى شخصية الممدوح ، إلا أننا نذكر هنا خروجه هذا عن عادته لندل أيضا على ما فى هذه القصيدة من مبالغة فى الرياء ، فقد أراد أن يجعلها خالصة لوجه كافور ولو شئنا لقلنا خالصة لوجه الجيش والمراقين !

لقد سمعناه يمدح سيف الدولة فما كان ينسى نفسه ولا كان يغادر القصيدة إلا وقد بث فيها كثيرا من فخره بنفسه .. ويحدثنا التاريخ أنه كان محبا لسيف الدولة فكانت عاطفته نحوه صادقة أمينة فلم يجد عندئذ من الغضاضة أن يفخر بنفسه ويمدحها فى مدحه لسيف الدولة .. وميزة أخرى جرى فيها مع عادته وطبعه وهى أنه نثر بعض الحكم فى قصيدته كما اعتاد أن يفعل فى كثير من قصائده فنراه يقول :

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة فلا تستعدن الحسام اليمانيا
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ولا تتقى حتى تكون ضواريا

كما يقول :

وللنفس أخلاق تدل على الفتى أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

° ° °

وخلاصة القول أن قصيدة المتنبي هذه من القصائد الرائعة التى كتبت له الخلود ، وإن كان فيها بعض ما نأخذه عليه ، فإن ثبات المستوى ليس شرطاً فى الشاعرية وقد يجمع البحر الماسة الكريمة البيضاء إلى جانب الفحمة القذرة السوداء

نور الدين شمسى باشا
كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

مطبوعات المجمع العراقى

تاريخ العرب قبل الاسلام

أوسع كتاب فى تاريخ العرب قبل الإسلام
جمع من الكتابات العربية الجاهلية ومن
النصوص الكلاسية والتوراة والتلمود

تأليف الدكتور

جواد على

طبع عام ١٩٥١

مصلحة البلديات

تقبل العطاءات بمصلحة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ١٧/٨/١٩٥١ عن عملية دق بئرين ارتوازى قطر ١٠ لعملية مياه ملوى .
وتطلب الشروط والمواصفات من المصلحة على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ ٥٠٠ مليم خلاف أجرة البريد وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ابتدائى قدره ٢٪ لايلتفت إليه .
٨٨٩٩